وأنه ليفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادته في الأوقات الأخرى، إذا بالخادم يصادفه وراء الباب، وهو يظن — بل يرجو — أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت في غيبته ولا تزال في انتظاره، ويغلو به هذا الوهم حتى يُعجِّل بالالتفات إلى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التي تنتظره فيها.

ولم تمضِ في ذلك إلا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركةٍ ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرًا من الأخبار يستحق أن يُقَال، ويساوي تلك اللهفة التي تعتلج في صدر صاحبنا.

فأسرع صاحبنا سائلًا: ألم تحضر إلى هنا السيدة؟ ألم تقل شيئًا؟

فقال الخادم في فتورٍ غريبٍ: لا أعلم!

فانفجر صاحبنا غاضبًا: كيف لا تعلم؟ ألم تكن هنا؟ هل هي أوصتك بأن تقول ذلك؟

قال الخادم وفي صوته احتجاج مَن يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام: يا سيدي قلتُ لا أعلم؛ لأنك نزلت من هنا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد في سائر الأيام.

فاشتعل صاحبنا غيظًا، وهَمَّ أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من أمامه فتبعه إلى باب الخدم، وهو يعلنه بالطرد وألَّا يعود ليريه وجهه مرةً أخرى، ولم يصفح عنه إلا بعد ثلاثة أيام، وبعد أن شفع له أن الرجل معذور؛ لأنه لَمْ يأمره بالبقاء في المنزل، وقد أنساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولًا به من حوار.